

القبيلة خلال العهد العثماني ديناميكية الخضوع والتمرد "نموذج قبائل الغرب الجزائري"
 The tribe during the Ottoman era, the dynamics of submission and
 "rebellion, "a model for the tribes of the Algerian West

رفاف شهرزاد¹

جامعة بشار

chahrasaid1973@gmail.com

تاريخ الوصول 2019/01/04 القبول 2020/05/02 النشر على الخط 2021/01/15

Received 04/01/2019 Accepted 02/05/2020 Published online 15/01/2021

ملخص:

أدرك الأتراك منذ الوهلة الأولى مدى تجذر البعد القبلي في المجتمع الجزائري، وحاولوا استغلال بعض القبائل الجزائرية كمحور دفاعي، أو كحصن منيع ضد القبائل الراضية فسرعان ما تقسمت هذه القبائل بين مؤيد للحكم العثماني وبين رافضٍ له، خاصة أمام ثقل الأعباء الجبائية فتحوّلت بعض هذه القبائل إلى معول هدم للكيان العثماني وسنحاول في هذه المداخلة عرض مفصل لأهم هذه القبائل (في الغرب الجزائر كنموذج للدراسة) ومواقفها من الوجود العثماني وتحالفها معه لطرد الأسباب ثم تحولها إلى نواة لاحتضان الثورات ضد ال عثمان.

كلمات مفتاحية:

القبيلة، العهد العثماني، بايلك الغرب، المحلة، الضرائب، العنف، الخضوع، التمرد، الثورة.

Abstract:

The Turks realized at first sight the extent of the tribal dimension in the Algerian society, and tried to exploit some of the Algerian tribes as a defensive center or as an immune fortress against the rejectionist tribes. These tribes quickly split between supporters of the Ottoman rule and those who rejected it, especially in the face of the heavy burden of taxes. This is a detailed view of the most important of these tribes (in the west of Algeria as a model of the study) and their positions of Ottoman existence and alliance with them to expel the Spaniards and turn them into a nucleus to embrace the revolutions against the Osman.

Keywords: Tribe, Ottoman era, West Baylak, Mahalla, taxes, violence, submission, rebellion, revolution.

¹ المؤلف المرسل: رفاف شهرزاد الايميل: chahrasaid1973@gmail.com

مقدمة:

مثلت الجهة الغربية¹ أو ما عرف ببابليك الغرب في العهد العثماني نموذجا متميزا من نماذج الإدارة العثمانية بحكم شساعته وغناه، فضلا عن كونه أرض جهاد دائم لما يقارب ثلاثة قرون، فالخطر الاسباني من جهة وتمرد القبائل على السلطة العثمانية أو المتحالفة مع الأسبان من جهة أخرى²، وتحتل الجزائر بصفة عامة والمنطقة الغربية منها بصفة خاصة، موقعاً استراتيجياً هاماً وقد عرفت معظم مدنها ازدهارا اقتصاديا ملحوظا وهذا ما شجع الإسبان على إحتلال هذه المنطقة³.

ويعود تاريخ ظهور البايك، كتقسيم إداري وسياسي إلى النصف الأول من القرن 16م حيث تم تقسيم البلاد إلى أربعة بليكات تسهيلا للحكم وقد حدث ذلك خلال حكم حسن باشا ابن خير الدين (1540-1552م)، وفي محاولة لتأمين حدود الغرب الجزائري ضد الهجومات الاسبانية المتكررة خاصة من وهران والمرسى الكبير، حيث توجد أكبر حامية لها منذ 1504م، قام حسن باي ابن خير الدين سنة 1546م، بحملة على تلمسان لتمشيط هذه الضاحية وإخلائها من بقايا الأسرة الزيانية المناوئة للباييك وقبائل بني عامر الهلالية المواليين للأسبان، وفعلا تمكن من مطاردة الأمير أبو عبد الله والقضاء على مولاي حامد وهما أبناء أبو حمو الثاني، أمير الزيانيين المخلوع، وقام صالح راييس بتنصيب حسن قورصو خليفة له على تلمسان وجعل من مازونة مقر بابليك الغرب سنة 1563م، وعين ابن خديجة باي⁴، وحصن هذا المقر بحامية تقدر بألف وخمسمائة يولداش من فرق الزنطوط أو المخصية⁵.

-خوجة، حمدان بن عثمان، المرأة، تق وتغ وتح محمد العربي الزبيري، منشورات المؤسسة الوطنية للاتصال، النشر والإشهار، 2005، ص 55¹.

²-خروبي فتيحة، بابليك الغرب الجزائري خلال العهد العثماني وتطوره فيما بين 1563-1792م، مجلة المرأة للدراسات المغاربية، العدد الأول، جانفي 2014، يصدرها مختبر الدراسات المغاربية، النخب وبناء الدولة الوطنية، جامعة وهران، ص 190.

³-دغموش كاميلية، قبائل الغرب الجزائري بين الاحتلال الاسباني والسلطة العثمانية (1509-1792م)، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، إشراف محمد دادة، السنة الجامعية 2013-2014م، ص 49.

⁴-Walsin Esterharzy, Esterhazy (Louis-Joseph-Ferdinand Walsin), De la Domination turque dans l'ancienne régence d'Alger, Paris, Librairie de Charles Gosselin, 1840, pp 163-164.

⁵--كمال فيلاي، البايك نظام حكم في الجزائر العثمانية، مجلة الهجرة والرحلة، عدد خاص، افريل 2014، مخبر الدراسات السوسيو تاريخية حول حركات الهجرة، جامعة قسنطينة، ص 22.

لقد أوضحت مازونة عاصمة للبايلك ابتداء من 1563م، وكان الاختيار استراتيجيا نظرا لموقعها الوسطي فهي تتوسط القبائل ما بين مستغانم وتنس وهي أيضا على مقربة من الشلف، لكنه مع مطلع القرن الثامن عشر اتخذ الباي مصطفى أبو الشلاغم مدينة معسكر عاصمة للبايلك، ويعود سبب اختيارها إلى أهميتها الإستراتيجية، وعقب الفتح الأول لمدينة وهران في عهد الباي مصطفى أبو الشلاغم انتقل مركز السلطة إلى وهران (1708-1732م)، ثم تحولت إلى مستغانم لفترة وجيزة (1732-1737م) ثم انتقلت قاعدة البايلك إلى معسكر (1737-1792م)، وأخير انتقل مقر البايلك بصفة نهائية إلى مدينة وهران بعد الفتح النهائي الذي كان على يد الباي محمد الكبير أبرز بايات الناحية الغربية¹.

يمتد بايلك الغرب من الحدود المغربية إلى الحدود التي تفصله عن دار السلطان وعن بايلك التيطري، ومن سواحل البحر المتوسط إلى نواحي البيض حيث مجال النفود الديني والسياسي لمشيخة أولاد سيدي الشيخ، ولم يكتمل بصفة نهائية إلا بعد خروج الاسبان من منطقة وهران سنة 1792م².

وهناك من يعطي للمنطقة حدودا أدق حيث يحدها وادي الشلف في الشرق ووادي الملوية في الغرب والبحر الأبيض المتوسط في الشمال والصحراء في الجنوب³ وكانت إحدى أولويات العثمانيين بعد أن تمكنوا من مد نفوذهم إلى الحوض الغربي للبحر المتوسط، الدفاع عن مراكزهم من الخطر الإسباني والبرتغالي، وقد أدرك العثمانيون أن تحقيقهم لذلك الهدف يتطلب منهم ضم المغرب الأقصى إلى ممتلكاتهم وجعله فاصلا بينهم وبين أعدائهم⁴ فبعد تثبيت حكمهم في تلمسان وفي بعض المناطق في الجهة الغربية شرعوا في اعداد العدة لضم المغرب الأقصى⁵.

ولا شك أن إحدى الخصائص التي انفرد بها بايلك الغرب هي عدم ثبات واستقرار عاصمته، وهو أمر تحكمت فيها الأوضاع السياسية والعسكرية المرتبطة بالاحتلال الإسباني للموانئ الغربية وتحديدًا وهران والمرسى الكبير⁶ والتنوع الاثني الممثل خاصة في القبائل التي تشغل مساحة هامة من الاقليم الغربي.

¹ - عائشة غطاس، النظم الإدارية المركزية ببايلك الغرب، ضمن كتاب الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسستها، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، 2007، ص234.

² - صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي 1514-1830، الجزائر، دار هومة للطباعة والنشر، 2005، ص292.

³ - Aramburu Den-Joseph De, Oran et L ouest Algérien au 18 Siècle, Présentation et traduction de korsou et Epalza, Alger, B. N. 1978, p9.

- ينظر ايضا: الواليش فتيحة، الحياة الحضرية في ببايلك الغرب الجزائري خلال القرن الثامن عشر، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، اشراف بلحميسي مولاي، جامعة الجزائر، 1993-1994م، ص16.

- ارزقي شوتيام، المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني 1519-1830م، أطروحة دكتوراه، إشراف عمار بن خروف، السنة الجامعية 2005-2006، ص15.

⁵ - المرجع نفسه.

⁶ - عائشة غطاس، مرجع سابق، 233.

عناصر السكان و علاقتهم بالسلطة المركزية:

أهم ميزة تميزت بها التركيبة الاجتماعية للبايلك الغرب هي التنوع والتعدد في العناصر الاثنية، فلقد كانت المدن تتميز باختلافات عرقية ودينية وحتى مذهبية، أما الريف فاغلبا ما تميز بنوع من الانسجام وتنظيم¹، حيث كان السكان ينتمون إلى قبائل شتى، تقسم إلى فريقين أو أكثر، فريقا يحتل الصدارة وتابع للبايلك في كل شيء وهم أهل المخزن، وفريق خاضع وهم الرعية².

ويرى ايميريت أن التركيبة الاجتماعية في الريف الجزائري تكونت على العموم من جماعة ذات امتيازات وجماعات عادية (الرعية)، يمكن ترتيبها كالاتي: كبار ملاك العقارات أفراد وعائلات، فلاحي الملكيات الجماعية، الخماسة، العمال المزارعين المؤقتين، العبيد السود يخدمون في بيوت العائلات الغنية³، لقد كانت الظروف الاقتصادية تتدخل في تصنيف السكان خاصة سكان الريف باعتبار أن قسما منهم نال الامتيازات مقابل عمل لصالح النظام الحاكم وقسمًا بقي يئن تحت وطأة الضرائب.

ويعد سكان ببايليك الغرب أكثر خضوعا للسلطة، ربما ذلك يعود إلى الخطر الاسباني، مما دفعهم إلى التعاون مع العثمانيين، و إلى التركيبة السكانية نفسها، التي كانت تتشكل من الأسر الدينية التي أظهرت ولاءها للعثمانيين منذ البداية⁴.

القبائل وعلاقتها بالسلطة بين الخضوع والتمرد:

إن القاعدة الاجتماعية لتنظيم القبائل، كانت تتمثل في تجمع عدد من الدواوير أو الخيام ومجموعة هذه الدواوير تشكل فرقة يحكمها شيخ، يعقد اتفاقا مع الولاء للعثمانيين. وهذه القبائل والفرق ليست غريبة عن بعضها البعض حيث كانت تنتمي إلى نسب واحد⁵.

¹ --الواليش، مرجع سابق، ص104.

² --توفيق دحماني، النظام الضريبي ببايلك الغرب الجزائري أواخر العهد العثماني، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث، إشراف عمر بن خروف، جامعة الجزائر، 2003-2004، ص27.

³ -Emerit,(m), les tribus privilégiées en Algérie dans la première moitié du xix siècle, in Annales économies, sociétés, civilisations, n°1, Année1966, p 44.

⁴ -ارزقي شوتيام، مرجع سابق، ص71-72.

⁵ --توفيق دحماني، الضرائب في الجزائر 1206-1282هـ/1792-1865م، دراسة مقارنة، أطروحة دكتوراه، إشراف عمار بن خروف، جامعة الجزائر، قسم التاريخ، السنة الجامعية 2007-2008، ص426.

ويشير تقرير النقيب "G. Latareau"، وهو عبارة عن كشف حول قبائل مقاطعة وهران، صادر عن وزارة الحربية بتاريخ 1833/04/30م، الى وجود قبائل عربية وبربرية متعايشة منذ القدم في الجهة الغربية، يحترفون الفلاحة منهم بدو ورحل، تشكل هذه القبائل دوواير أو دشرة، يرأسها قائد القبيلة، وتملك القبائل الكبرى من 180 الى 200 خيمة، أما الأقل شأن فتملك ما بين 20 إلى 60 خيمة، وهذه القبائل تملك سلطة روحية ومادية متوارثة منذ أجيال¹.

ويضع التقرير جدول إحصائي مفصلا عن قبائل الغرب الجزائري في غاية الاهمية التاريخية، يبين فيه فروع كل قبيلة و مقدراتها الحربية إي عدد المشاة والخيالة لديها مثلا يقدر قوة صوالة Sou-alia بـ 2500 من الخيالة، أما تارة trara بـ 2500 من الخيالة، والغزل بـ 800 مشاة و 400 من الخيالة².

وكانت قبائل بايلك الغرب كثيرة ومتداخلة، يغير بعضها على بعض أحيانا ويستجير بعضها ببعض أحيانا أخرى، كما عرفت قبائل الحدود مع المغرب تداخلا آخر حيث فرضت عليها الظروف الانتقال بين البايك والمغرب الشرقي³، وقد صارت هذه الحركية واحدة من السمات الاجتماعية التي طبعت المجتمع الريفي في بيايلك الغرب، وما يزيد من غموض تاريخ القبائل كثرة تنقلاتها وتحركاتها خضوعا لظروف متبانية⁴.

وحسب لويس ران فقد أحصى 157 قبيلة منها 46 مخزنية وبدورها تضم 36 قبيلة حربية و 10 فلاحية، أما الباقي فنجد 56 قبيلة تحت تصنيف قبائل الرعية، 29 قبيلة محالفة، 26 قبيلة مستقلة⁵.

وأدى الوجود الاسباني في وهران والمرسى الكبير والوجود العثماني في باقي الغرب الجزائري إلى فرز بين القبائل، منها ما انضمت إلى الاسبان ومنها ما انضمت إلى الأتراك العثمانيين، أما القبائل الواقعة على الحدود الفاصلة بين إقليمي الاسبان والعثمانيين فقد ظلت مترددة بين التبعية لهؤلاء و أولئك⁶.

بعد أن سيطرة الاسبان على المرسى الكبير سنة 1505م، و وهران 1509م، زاد اهتمامهم بكسب ود العرب القاطنين حول المدينة مستعملين في ذلك جميع الأساليب والطرق، فاعترفت بسلطتهم بعض القبائل المجاورة للموقعين، وقدمت لهم المقاتلين، وأصبحت المنطقة الواقعة بين وهران وجبل راشد إما خاضعة لهم أو حليفة، وشكل الاسبان فرقا عسكرية من الأهالي تتكون أساسا من الفرسان وقد عرف هؤلاء الجنود باسم **المغطسين**،

¹ - G. Latareau, Notice Sur les tribus de la Provence d' Oran, Ministère de la Guerre, 1H225, p1.

² -G. Latareau, Notice Sur les tribus de la Provence d' Oran, op.cit,p 2.

³ -كمال بن الصحرابي، أوضاع الريف في بيايلك الغرب الجزائري أواخر العهد العثماني، أطروحة دكتوراه، في التاريخ الحديث، إشراف دحو فغور، قسم التاريخ، جامعة وهران، 2012-2013م، ص235.

⁴ - كمال بن صحرابي، نفسه، ص235.

⁵ - Revue Africaine, n°43, 1899, p122.

⁶ - صالح عباد، مرجع سابق، ص303-304.

وهذه الكلمة تعني المعمدين¹، وكان شيخ بني عامر عبد الرحمن بن رضوان، أول من انظم إلى الاسبان، واستمر تحالفهم مع الاسبان مدة طويلة، ونستشف ذلك من خلال الرسائل المتبادلة بينهما، والتي يعود تاريخها إلى عام 942هـ/1535م²، ويحدد عبد القادر المشرفي الأهالي الذين كانوا تحت سلطة الاسبان يتشكلون من ثماني جماعات هي: كرشتل و شافع وحميان وغمرة وجيزة وأولاد عبد الله و أولاد علي و أولاد الونازرة³.

ومن الأسباب الرئيسية التي جعلت بعض الجماعات الأهلية تنضوي تحت سلطة الاسبان في وهران، سيطرة هؤلاء الاسبان على السهلين الهامين مليئة و سيرا، وهما سهلان واسعان وخصبان وفيهما مراعي لا مفر منها لقطعان ماشية القبائل المجاورة، فكان على هذه الأخيرة أن تتصالح مع الاسبان لكي تضمن لنفسها الاستفادة من السهلين⁴، هذا من جهة ومن جهة أخرى كانت سوق الاسبان تسمح للأهالي ببيع فائض إنتاجهم إنتاجهم من الحبوب والجلود والشموع والفواكه، وكان الملك الاسباني يقدم كل سنة كمية من النقود لكل شيخ من شيوخ الجماعات الأهلية تتناسب مع عدد خيام كل جماعة⁵.

وهناك من لاحظ أن تلك القبائل ورغم تظاهرها بالولاء للأسبان، فإنها كانت في الواقع معادية لهم حيث كانت تقوم بالإغارة على المراكز الإسبانية من حين لآخر، فعندما أقدم الباي مصطفى بوشلاغم بإعداد العدة على محاربة الإسبان قرر بنو عامر التخلي عن الإسبان والانضمام إلى صفوف الباي⁶.

أما القسم الآخر من القبائل، فكان خاضعا للعثمانيين في مقدمتهم:

*قبائل المخزن⁷: قبائل المخزن هي قبائل جزائرية متعاونة مع السلطة العثمانية الحاكمة في الجزائر مقابل تمتعها بامتيازات في الأراضي والنفوذ، كما تعتبر همزة وصل بين السلطة والسكان، وهي مسؤولة عن حفظ الأمن في المناطق

¹ -صالح عباد، نفسه، ص306.

² -L. Féraud, lettre arabes de l'époque de l'occupation Espagnole en Algérie, in R.A 1873,N°17,P.318.

³ - عبد القادر المشرفي الجزائري، بحجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الاسبانيين بوهران من الاعراب كني عامر، تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم،(د.ت)، (بدون دار نشر)، ص13.

⁴ -صالح عباد، نفس المرجع، ص307.

⁵ - صالح عباد، نفسه.

⁶ - توفيق دحماني،، الضرائب في الجزائر،... المرجع السابق، ص 428.

⁷ - يعود اصل هذه الكلمة إلى تلك المؤسسة الإدارية، التي أنشأتها دول المغرب قبل الفتح الاسلامي والمتمثلة في الاعوان الاداريين المكلفين بتسيير وحفظ محصولات الضرائب العينية المكسدة في المخازن، وقد تطور معنى هذا اللفظ ليشمل كل الاعيان الاداريين التابعين للبايلاك تقريبا، إلى أن أصبح في العهد العثماني لفظا مرادفا لكلمة " سلطة أو حكومة"، ينظر: دغموش كاميلية، مرجع سابق، ص95.

البعيدة عن سيطرة الأتراك كالأرياف، الصحراء والجبال، من أهم مهامها جمع الضرائب¹، فالمخزن حسب المزاري هو الناصر للدولة كيفما كانت وحيثما وجدت².

تتمركز هذه القبائل في الأماكن الإستراتيجية وفي ضواحي المدن والحاميات، لتسهيل حركة مرور الجنود³، على مقربة من طرق المواصلات الرئيسية والمسالك المهمة، وبالأخص الطرق المعروفة آنذاك بالطرق السلطانية، فالطريق السلطاني الرابط بين الجزائر وكل من مدنتي وهران ومعسكر نجد العديد من قبائل المخزن المستقرة حوله⁴، وهي ذات صبغة فلاحية وعسكرية وإدارية، ويعرفها ناصر الدين سعيدوني بأنها "مجموعات سكانية تعميرية إصطناعية متميزة في أصولها مختلفة في أعراقها.

فمنها من أقرها الأتراك بالأراضي التي وجدت عليها، لتكون سندا لهم، ومنها من أعطيت لها الأرض لتستقر عليها، ومنها من استقدم كأفراد مغامرين أو متطوعين من جهات مختلفة، ليؤلف جماعة شبه عسكرية ترتبط مصالحها بخدمة الحكومة التركية⁵، و يعتبر فرسان قبائل المخزن القوة الأساسية للإدارة التركية في الأرياف والمناطق الخارجة عن نطاق السيطرة الحكومية، فهم يساهمون بشكل كبير في تدعيم السلطة وبقائها خاصة مع انخفاض عدد الجيش التركي.

أما عن أعداد فرسان المخزن فيذكر رين(RIN)⁶ أنهم يشكلون حوالي ستين جماعة مخزنية، ويقدرهم سعيدوني بحوالي ثلاثين ألف فارس يتمركزون في الأرياف والمدن الداخلية⁷، ولعل أهم منطقة تركزت فيها قبائل المخزن في بيايلك الغرب هي السهول الوهرانية التي كانت عرضة للتهديد من طرف الاسبان والمتعاونين معهم من بني عامر، وأيضا لوضع حد لتدخلات المغاربة، وللمتمردات والانتفاضات الداخلية، أما باقي المناطق فتواجههم بها

¹ - سفيان صغيري، العلاقات الجزائرية العثمانية خلال عهد الدايات في الجزائر 1671-1830، مذكرة ماجستير، إشراف حسينة حماميد، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2011-2012، ص 118.

² - الآغا بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران و الجزائر واسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، ج 1، تح ودراسة يحي بوعزيز، لبنان، دار الغرب الاسلامي، ط1990، ج 1، ص 30.

³ - توفيق دحماني، الضرائب في الجزائر، المرجع السابق، ص 428.

⁴ - من الشرق إلى الغرب نجد على التوالي: مخزن بوحلوان بالقرب من مليانة، ومخزن أولاد الصحاري الى الغرب من مليانة، ومخزن بن يحيى على واد الروينة، زمالة البغدادي على وادي الفضة، ومجموعتين من قبائل الزمالة عند ملتقى وادي سلي بالشلف، عزارة وزمالة الحاج عند ملتقى وادي رهيو بالشلف، ثم نجد مجموعتين أخريتين من قبائل الزمالة عند ملتقى وادي مينا بالشلف فمخزن الصحاري على وادي الهليل ثم مجموعات الدواير، والزمالة المنتشرة بين وهران ومعسكر، ينظر: ناصر الدين سعيدوني، وراقات جزائرية، مرجع سابق، ص 269.

⁵ - ناصر الدين سعيدوني، وراقات جزائرية، مرجع سابق، ص 258.

⁶ - أرزقي شويثام، المجتمع الجزائري وفعالياته...، مرجع سابق، ص 70-71.

⁷ - ناصر الدين سعيدوني، وراقات جزائرية، نفسه.

يقتصر غالبا على أغراض اقتصادية وعسكرية وإستراتيجية¹، وتظهر على الخريطة في توزيعها على شكل خطين متوازيين الأول يأخذ جوانب الجبال التلية من سبخة وهران إلى منتصف وادي الشلف، والثاني في أطراف الصحراء من سعيدة إلى سبدو، وهو كان يسمح بمراقبة قبائل الرعية²، وسوف نسلط الضوء على بعض قبائل المخزن:

* الدواير: تعتبر الأقوى في مخزن وهران استقرت في المنطقة سنة 1750م، تتربع على مساحة أراضي تناهز 140 ألف هكتار، تتقاسم فيها الرئاسة ثلاث مجموعات هي: البحايشية، الكراطة، البناعدية³.

* الزمالة: تعني كلمة الزمالة من الفرسان، والمخيم الدال على التنقل والترحال، تتكون من فرسان المخزن وإخماد الثورات، والسهر على تنفيذ أوامر الإدارية، تتقاسم رئاستها ثمانية أعراش هي: المخاليف، القدادرة، القرايدية، الورايدية، المخاترة، الونازرة، اليساسفة، الشوايلية.

* الغرابة: وهم عرش ملتقط كالزمالة والدواير، يطلق عليهم لفظ العبيد، أو عبيد البخاري، جاؤوا مع مولاي إسماعيل عند غزوه للغرب الجزائري في سنة 1700-1701م⁴.

* البرجية: تقاسم قيادتها النقايبية والبلاغة بالتناوب⁵.

* الحشم: موطنهم سهل غريس، كان العثمانيون يستعينون بهم في صد هجمات الاسبان بوهرا على المناطق المجاورة لها، ويكافئوهم باقتطاع مساحات واسعة في مناطق سيق وسهل الهبرة⁶.

* المكاحلية: تتألف من القبائل التالية: أولاد أحمد، أولاد بوغرة، أولاد العباس، أولاد سلامة.

¹ - ذكر المازري أن مخزن وهران مشكل من قسمين هما : المخزن الشرقي والمخزن الغربي، فالشرقي هو نجع المكاحلية، وأولاد سيدي عربي، وصبيح، وأولاد العباس، وغيرهم من أهل النواحي الشرقية من واد مينا إلى واد الشلف، والغربي هو نجع الدواير والزمالة و الغرابة و البرجية، ينظر: المازري، مصدر سابق، ج1، ص30، دغموش كاميلية، مرجع سابق، ص97.

² --Emerit,(m), les tribus privilégiées, op.cit,p52.

³ -البحايشية: ينتمون إلى أولاد المسعود بن سويد، ويشكلون أكبر الفرق المنتسبة إلى أولاد البشير البختاوي، كانوا يقطنون نواحي العمرية بين وهران وتلمسان، الكراطة: هم قبيلة بني راشد، كانوا يسكنون مدينة الكرط إحدى مدن غريس الغربي وهم عائلة أولاد الشريف، واسمه عبد الله بن عبد الرزاق التلاوي القرطي، البناعدية: نسبة إلى جدهم بن عدة بن خدة المنحدر من ذرية الشيخ السنوسي، وأصلهم من أجواد واد حمام من الحشم، تولى رئاستهم أولاد الشريف و أولاد بن عفان، ينظر: دغموش كاميلية، مرجع سابق 101.

⁴ -تقاسم الرئاسة في الغرابة ثمانية أعراش هي: الوردية، العلامة، الخدامية، الونانية، السهايلية، المحاميد، الرفافسة، العوايلية، ينظر: توفيق دهماني، النظام الضريبي، مرجع سابق، ص55، دغموش كاميلية، مرجع سابق 101.

⁵ -ينحدر النقايبية من قبيلة خلافة، وهم أبناء عم الأمير عبد القادر، يجتمعون معه في الجد أحمد بن عبد القادر الشهير بابن خدة، وسموا بالنقايبية نسبة إلى محمد أبي نقاب، أما البلاغة فنسبة إلى جدهم أعمار البلغي الزياتي، ينظر: المازري، مصدر سابق، ج2، ص32، دغموش كاميلية، نفس المرجع 102.

⁶ - Lespinasse, Notice sur le Hachem de Mascara, in R A,1877,T21,Alger, p141.

هذه بعض القبائل المخزنية خاصة المتمركزة في السهول الوهرانية، ونظر لضعف قوة الأتراك العسكرية لجأوا إلى تجنيد الأهالي بشكل رسمي .

فاستعانوا بالمخزن¹ حتى قيل انه منذ عهد الباي مصطفى المنزالي لم تطلق رصاصة من قبل "تركي" في اي حملة، لان قبائل المخزن هي التي كانت تتكفل بذلك² والجدول التالي يوضح ذلك.

قوات المخزن تحت سلطة حسن بن موسى آخر بايات وهران حسبما أورده استرازي من الخوجة الصغير التابع لخليفة الباي³:

القبيلة	عدد الفرسان
الدواير	1500
الزمالة	1100
الحشم	2000
البرجية	500
العوارة (سجراة- بني شقران- شارب الريح- بني غدو)	100
المكاحلية	200
أولاد حامد+ بوغراة	50
أولاد سلامة (أولاد عدة- أولاد زرفة- أولاد علجة)	100
عكرمة	100
اولاد العباس	200
اولاد خويدم	100
اولاد خضرة	50
اولاد قويدر	50
عبيد الشراقة	500
المجموع	6550

¹ - كمال بن صحراوي، اوضاع الريف، مرجع سابق، ص52.

² - Esterhazy, De la Domination turque, op.cit , p262.

³ - ibid, pp 282-283.

نلاحظ من خلال معطيات الجدول ان مخزن وهران يعتبر من ابرز مخازن الايالة الجزائرية من حيث القوة العسكرية وشجاعة المنتمين اليه، وقوتهم تعود الى استمرار الحروب، وهو ما جعل دايات الجزائر يعتمدون عليهم¹، فقد حصل أفراد من الدواير والزمالة على ألقاب شرفية من البايك وحق الإشراف على بعض قبائل الرعية، وجباية الضرائب².

ادن لعبت قبائل المخزن دورا بارزا في تدعيم وترسيخ أسس الحكم العثماني في بايلك الغرب، فهي بمثابة حلقة الوصل بين الحكام والأهالي، ورابطة متينة شددت المحكوم إلى الحاكم³.

*قبائل الرعية: شكلت هذه الأخيرة القبائل المضطهدة، والتي تتحمل عبئ الضرائب الثقيلة والتي كانت تشكل المورد الرئيسي للدولة خلال القرن الثامن عشر⁴، لما كانت توفره من مداخيل مالية هامة، وإنتاج زراعي وحيواني⁵. اجبرها موقعها الجغرافي على الخنوع فهي تقيم في المناطق التي كانت تحت نفوذ الإدارة الممثلة في قبائل المخزن، والحاميات العسكرية المراقبة في الأبراج ومدن البايك، و سيطرة قبائل المخزن وبعض الأسر القوية على أخصب الأراضي مما جعل قبائل الرعية تدخل ضمن نظام الرعية، للاستفادة من قطعة أرض مقابل تقديم خدمات للإدارة ودفع الضرائب المقررة⁶، أما من حيث تنظيم قبائل الرعية فكان ببايلك الغرب أكثر تنظيما، إذ قسم إلى ثلاث مناطق، ويعد سهل الشلف من أهم المناطق لكونها توجد بها الأراضي الخصبة، وتمتد حدودها الشرقية إلى إقليم دار السلطان، كما أنها كانت معبرا للطريق السلطاني الرابط بين البايك ومدينة الجزائر، ونظرا لأهميتها الاقتصادية والإستراتيجية، فإن إدارة قبائل الرعية القاطنة بها أوكلت لخليفة الباي⁷. أما قبائل المناطق الأخرى التابعة للبايك فكان يتصرف فيها الأغوات، وقياد الدواير والزمول والمكاحلية، كما كانت بعض القبائل تابعة مباشرة للباي⁸، وكانت قبائل الرعية في ببايلك الغرب عموما تتمركز في التافنة،

¹ -الواليش فتيحة، مرجع سابق، ص31.

² -- Esterhazy, Notice historique sur le maghzen d'Oran, Oran, Typographie de Berrier, 1849,p15

³ - Esterhazy, Notice historique sur le maghzen d'Oran, op.cit,p9.

⁴ -الواليش فتيحة، نفسه.

⁵ -دغموش كاميلية، مرجع سابق، ص106.

⁶ -أرزقي شويتم، مرجع سابق، ص182-183.

⁷ -نفسه، ص184.

⁸ -- Esterhazy, De la Domination turque, Op.cit, p 266 .

وتتشكل شريطا بسبدو وتليت وجبال تسالة، وطفراوي الى الشطوط، وسعيدة، وفرندة، وتيارت، وزمورة، ومارزونة، واغلبها يسكن الجبال الملائمة للزراعة أو الهضاب الداخلية¹.

* القبائل المتحالفة أو الشبه مستقلة : وهي المتعاملة مباشرة مع الأتراك انطلاقا من بعدها الروحي والديني كقبيلة أولاد سيدي بوعبد الله² باعتبارها عائلات مرابطة، لعبت دور الوسيط بين السكان والأتراك وحل النزاعات القبلية، استمدت شرعيتها ونفوذها من نسبها الشريف³، فقد كانت الإدارة العثمانية تستعين في تعاملها تعاملها مع بعض القبائل بالمرابطين والشخصيات المؤثرة في المنطقة، ومقابل منحهم بعض الامتيازات⁴.

* القبائل المستقلة: وهي القبائل الجبلية والصحراوية، عرفها أحمد بن هطال التلمساني بقوله: "...هناك أعراب راحلة ومقيمة، إلا أنها لم تنلها أيدي السلطة، ولم يكن لملك مصلحة ولا منفعة..."⁵، امتنعت عن دفع الضرائب، ساعدها في ذلك موقعها الجغرافي وتضاريسها، وكذا بعدها عن مركز الإدارة، وكذلك طبيعة نشاطها الاقتصادي، إذا تعتبر أراضيها من أفقر الأراضي، أي أقل قيمة زراعية واقتصاديا، ويظهر أن ابن هطال وصفها وصفا اقتصاديا رائع بقوله "...وأجابهم لما طلبوه لشؤم بلادهم وقبح أرضيهم، فماؤها حميم وغبارها عميم، فلا توافق كل ذي طبع سليم... لا نبات فيها تعيش به الدواب ولا شجر بساحتها يكون منه الاحتطاب..."⁶، هذا الوضع الاقتصادي جعل الباي محمد الكبير يبدى قلة الاهتمام بهذه المناطق⁷.

وكانت هذه القبائل تتمركز في المناطق الجبلية الوعرة أو في أقصى الحدود المغربية أو في الهضاب العليا، فمثلا قبائل ريغة الواقعة بضواحي مليانة كانت في حرب دائمة مع السلطة نتيجة رفضها دفع ما عليها من الضرائب، وكذلك الأمر بالنسبة للقبائل المجاورة لها منها: بني فراح، وشنواة جندل، ومطمطة والعطاف⁸.

تعذر على السلطة العثمانية إخضاع القبائل في بيابلك الغرب طيلة فترة وجودها، فخضوع بعضها ظريفي فسرعان ما تتمرد على السلطة بمجرد شعورها بضعف هذه الأخيرة، ويعود ذلك إلى قوة بعض القبائل " قوة السيف" أي الاجواد وقبائل أخرى اعتمدت على نفوذها الروحي والديني، مما سمح لهم بالاستقلال الذاتي.

¹ -توفيق دحماني، النظام الضريبي...، مرجع سابق، ص 56.

² -نسبة إلى الوالي الصالح سيدي بوعبد الله المغوفل الحسيني المشيشي 828-923هـ، ينظر: بلقاسم ليلي المراكز الاستيطانية وتطورها في منطقة غليزان 1850-1900م، رسالة ماجستير، إشراف موقفس محمد، جامعة وهران، قسم التاريخ، 2012-2013، ص 42.

³ -المرجع نفسه.

⁴ -أرزقي شويتام، مرجع سابق، ص 184.

⁵ -أحمد بن هطال التلمساني، رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري، تح وتقا: محمد بن عبد الكريم، القاهرة، عالم الكتب، ط 1، 1969، ص 36.

⁶ - نفس المصدر، ص 66-67.

- رقية شارف، الواقع الاقتصادي للجزائر من خلال نماذج لمؤرخين جزائريين نهاية القرن 12هـ/18م وبداية القرن 13هـ/19م، مجلة العلوم الإنسانية، عدد 41، جوان 2014، مجلد "ب"، ص 58.

⁸ - دغموش كاميلية، مرجع سابق 118.

أما السياسة العثمانية فكانت تقوم على فرض سلطتها وإخضاع السكان وربطهم بالحكم المركزي معتمدة على مبدأ فرق تسد، وإثارة عامل المنافسة بين القبائل، وإقامة نظام دفاعي يستند على الحاميات العسكرية و قبائل المخزن للحد من تحركات القبائل الجبلية¹، و إرسال حملات فصلية وشن هجمات انتقامية استفزازية من طرف فرسان المخزن ضد القبائل الممتنعة عن دفع الضرائب بغية إضعافها وإجبارها على الخضوع مثل ما حدث لقبيلة الاحرار احدى قبائل منطقة تيارت، التي رفضت الانصياع والخضوع لوقت طويل لسلطة التركية، لكن حاجتها في البحث عن المراعي فرض عليها التواجد بالتل بضواحي العيوقية في رحلة سنوية²، وهنا تعرضت لهجوم في 17 جويلية 1828م وذكر المزارى ذلك بقوله "...فاننا غزونا على قبيل الاحرار الغرابة بعد المرافدة وتخلف العيون لما هم عليه،...، و سرنا نحوهم سيرا عنيفا،...، فأصبحنا عليهم وهم في غفلة فأحطنا بهم إحاطة الهالة بالقمر والخاتم بالخنصر وجمعنا مالهم جمعا..."³.

وتعد فترة حكم الباى محمد بن عثمان (1779-1796م) من أهم الفترات التي فرضت فيها الإدارة وجودها في ببايلك الغرب، فقد وسع نفوذه إلى الاغواط بعد الحملة العسكرية عام 1777م وأجبرت هذه المناطق على الاعتراف بسلطة الأتراك ودفع الضرائب⁴.

ومما يلاحظ أيضا، هي أن كثيرا من القبائل كانت تسعى بنفسها إلى البايلىك، وتعرض تبعيتها له، وتفرض على نفسها المطالب والفروض المخزنية التي في مقدورها الوفاء بها⁵، ويذكر ابن هطال واصفا رحلة باي الغرب إلى الجنوب الجزائري لتأديب بعض القبائل العاصية، كيف كانت ترد عليه وفود بعض القبائل في الطريق، عارضة ولأها وتبعيتها إذ يقول: "... وقد كان ورد عليه أهل تاجموت، وأهل عين ماضي بعلمائهم وكبرائهم يريدون خدمته كآحاد الرعية ويلزمون أنفسهم بشيء يرتضيه حتى تأتي على جميعهم المنية فقسط لكل واحدة منهما قسطا معتبرا يعطونه في كل عام إلى آخر الدهر"⁶.

¹ - حباش فاطمة، المكاتب العربية ودورها في المد الاستعماري بالغرب الجزائري (1844-1870)، تيارت، سعيدة، جيرفيل، البيض. نماذج، اطروحة دكتوراه، إشراف بن نعيم عبد المجيد، جامعة وهران، السنة الجامعية 2013-2014م، ص5.

² - نفسه، ص5.

³ - المزارى، مصدر سابق، ج1، ص-ص 367-368.

⁴ - Gorguos, Notice sur le Bey d'Oran, Mohammed EL Kebir, op.cit ,P412.

⁵ - أحمد بحري، حاضرة مازونة دراسة تاريخية وحضارية، أطروحة دكتوراه، في التاريخ والحضارة الإسلامية، إشراف بن معمر محمد، السنة الجامعية 2012-2013، ص101.

⁶ - بن هطال، مصدر سابق، ص53.

وكان لسياسة التركيبة المبنية على العنف والتسلط خاصة على قبائل الرعية وسياسة فرق تسد، أثرها البالغ، فقد ولدت الروح العدائية لديها، وعبر هايدو عن ذلك بقوله: ... بأنه لا توجد في الإمبراطورية العثمانية علاقة أسوأ من علاقة الترك بالعرب في مملكة الجزائر...¹.

يميل الكثير من الفرنسيين الذين اهتموا بتاريخ الجزائر خلال العثماني إلى اعتبار المجتمع الجزائري قبل الاستعمار، مجتمعا إقطاعيا، واشهر هؤلاء "شارل فيرو" الذي ردد هذه العبارة عند تناوله لتاريخ الجزائر، وأشار إلى تمتع بعض القادة من الأهالي بسلطات مدنية واسعة²⁽⁶⁹⁾، كما حاول "لويس رين" في دراسته التي انجزها تحت عنوان: مملكة مدينة الجزائر في عهد الداوي الأخير (Le Royaume D' alger sous le dernier dey) أن يثبت من خلال التركيبة الطبقيّة الإقطاعية في الأرياف الجزائرية، أن قسم من سكان الأرياف "الرعية" يمارس عليها الاستغلال من طرف عشائر المخزن، وكذلك النبلاء أو الاجواد والمرابطين بحكم الامتيازات المرتبطة بالقيادة التي أدت إلى الفوارق الاجتماعية بل ذهب إلى ابعاد من ذلك حيث وصف المجتمع الجزائري في تلك الحقبة بعبارة "أكلة ومأكولون"³.

وهو نفس الرأي الذي خلص إليه "غاليسو" في دراسته للمجتمع الجزائري بقوله أن هذا الأخير كان مجتمعا إقطاعيا قبل الاستعمار، وان الأرض باعتبارها الدعامة الأساسية للإنتاج، هي بقبضة فئات ارسطوقراطية يرتبط أعضاؤها فيما بينهم بروابط شخصية ويشكلون الطبقات العليا للجهاز السياسي، وحسب غاليسو أن هؤلاء الارستقراطيون هم القادة المحليين، ورؤساء القبائل و الاجواد، إلى جانب ذلك هناك ارسطوقراطية ثانوية ممثلة في العائلات ذات النفوذ الديني وصوفي وتحوز الاحباس⁴.

ويؤكد الباحث محفوظ سماتي أن هناك طبقة برجوازية عقارية مستقرة في المدينة، تراقب الضواحي وجزءا كبيرا من زراعة الحبوب، وهم من الأتراك والكراغلة ورجال المخزن، ومن السادة الذين ينتمون إلى السلطة، ويملكون ثروات ضخمة، جمعوها من الانتاجات الزراعية ومن التجارة. وفي خضم هذا الطرح يؤكد سماتي أن الاقتصاد الريفي ظل تابعا للمدينة، الآن المركز الحضري يملك إلى جانب القوة الردعية، أراضي شاسعة وسط القبائل⁵.

- ناصر الدين سعيدوني، النظام المال للجزائر في الفترة العثمانية 1800-1830م، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1979،

¹ص43.

²-صالح عباد، مرجع سابق، ص380.

³ - Rinn (L), Le Royaume D' alger sous le dernier dey, R.A, n°41, pp124-128.

⁴-عباد صالح، مرجع سابق، ص380-382، ينظر حول الموضوع:

-GALSSOT(R), L'Algérie pré- coloniale op.cit, pp147-181.

⁵-محفوظ سماتي، الامة الجزائرية نشأتها وتطورها، مرجع سابق، ص44.

حاول بعض المفكرين الفرنسيين إصاق الإقطاع بالجزائر خلال العهد العثماني، لكن هذه الفرضية أو الأطروحة وجدت من يرفضها قطعاً، وعلى رأس هؤلاء "كارل ماركس"¹ الذي يؤكد أن أسس المجتمع الجزائري قبل الاستعمار الفرنسي، كانت تقوم على نمط الملكية العقارية (القبلية- المشاعية)، وأن هذا النمط له حيوية كبيرة، وبتحويل الملكية العقارية في الجزائر إلى ملكية فردية، يتم تدمير هذا المجتمع بالذات.²

لقيت أطروحة النمط الإقطاعي في الجزائر انتقادات حادة، فقد سارت "لوسيت فالانسي" على نهج ماركس في رفضها لهذه الأطروحة بصفة جذرية، فهي تنفي سيطرة القياذ وكبار الأسياد على فائض الإنتاج الفلاحي، وعلى وسائل الإنتاج وحتى على ملكية الأرض³، فلا نجد في الجزائر التقسيم الاجتماعي الإقطاعي المتمثل في الحكام والمحاربين والكادحين بالوضوح الذي نجده في أوروبا الإقطاعية.⁴

كما نتج عن التطور الذي شهده نظام ملكية أراضي المخزن، أن تحولت مساحات شاسعة من أراضي البايك المخصصة لفرسان المخزن إلى ملكيات خاصة، فتمكنت عائلات مخزنية من الاستحواذ على الجزء الأكبر من أراضي المشايخ التي كانت تعيش عليها⁵، ومارست عليها مقتضيات الملكية الفردية بأثم معنى الكلمة إرثاً وبيعاً وبيعاً وشراءً.⁶

وبهذا حسب سعيدوني اكتسبت عشائر المخزن صفة الإقطاع وكان لها تأثير ملموس على حياة جانب كبير من سكان الريف الجزائري قبل الاحتلال فرغم أنه لم يكن لها حق ملكية الأراضي، ومع ذلك تعتبر بحكم العرف الإقطاعي صاحبة الأرض الفعلية⁷، وأصبحت علاقة فرسان المخزن بسكان الريف، علاقة تقوم على الخوف الخوف والعداء والاحتقار المتبادل بين هذه التجمعات الإقطاعية وبقية السكان الخاضعين لها⁸، رغم أنها كانت

¹ - مقال على الشبكة الالكترونية يناقش آراء كارل ماركس حول الملكية في الجزائر

² - عباد صالح، نفس المرجع سابق.

³ - لوسيت فالانسي، المغرب العربي قبل سقوط مدينة الجزائر 1790-1830م، تر، الياس مرقص، بيروت، دار الحقيقة للطباعة والنشر، ط1، 1980، ص152-153.

⁴ - عباد صالح، نفس المرجع، ص383.

⁵ -- Bache(E.L), De la propriété arabe en Algérie avant 1830,op.cit, pp699

- ينظر: ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية...، مرجع سابق، ص547.

⁶ - عباد صالح، مرجع سابق، ص387.

⁷ - ناصر الدين سعيدوني، ورقات... نفسه.

⁸ - ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية....، مرجع سابق، ص550.

تربطها بالسكان المحليين أو أواصر اللغة والاصل والعادات، فهي حسب تعبير "إسترهازي": "قوة مأخوذة من البلاد لحكم البلاد"¹.

ساهم الإقطاع الذي مارسه السلطنة العثمانية باستخدام فرسان المخزن في تغيير نظرة سكان الأرياف إلى الحكم العثماني بالجزائر وأصبحوا أكثر استعدادا للثورة.

4- دور القبلية في خلق التوازن الاجتماعي:

القبيلة لم تكن تتكون من أفراد ينحدرون بالضرورة من جد واحد، على الرغم من أن الجد كان المرجعية بالنسبة لأفراد القبيلة. عن حقيقة أو عن وهم. فالقبيلة أو العشيرة غالبا ما تكونت من تجمعات ذات مصلحة مشتركة امتصت ذاتية الفرد بولائه لتلك القبيلة أو العشيرة²، ومن ثم ولمصلحته كان عليه أن يلتزم بضرورات أخلاقية ودينية واقتصادية مقابل حصوله على حماية وأمن ومورد رزق من الأرض.

وتكون الأرض هنا محل نشاط وقاعدة أساسية لتلك القبيلة أو العشيرة، مثلما للسلالة من أساس، وإن كان اسم الجد يُرفع كشعار لتعزيز الأبوة الذكورية، وللتخفيف من النزاعات داخل القبيلة ولتعاقد أفرادها في ضمير جمعي³.

وقد حدث نوع من التلاحم، فالشعور القبلي نظرا لوعيه بمحدودية إمكانياته المادية فإن سلوكه الاقتصادي كان يتحرك وفق آلية التضامن القبلي، كأن يتقاسم أعضاء القبيلة أعباء الرعي، وتتقاسم أعباء السقي، كما يظهر هذا التقاسم للأعباء المادية في عملية التسوق، كما يتشارك أعضاء القبيلة في أعباء الدفاع عن شرفهم⁴، و مارس أعضاء القبيلة حق الشفاعة للحفاظ على الملكية داخل العائلة الموسعة، الذي يعطي أعضاء الأسرة أو القبيلة حق

¹ -M.Walsin . Esterhazy, De la domination turque, op.cit, p25.

² -عدي الهواري، عدي الهواري، الاستعمار الفرنسي في الجزائر سياسة التفكيك الاقتصادي والاجتماعي 1830-1960. م، تر جوزيف عبد اله، ط1، بيروت، دار الحداثة، 1983، عميرايو احميدة، سلسلة محاضرات، حصلت عليها منه شخصيا عن طريق الايميل .
³ -عميرايو احميدة، نفس المرجع.

⁴ - سلطنة عابد، التراتبية الاجتماعية ببابلك الغرب وأثرها على مقاومة الامير عبد القادر 1832-1847م، مقارنة مونوغرافية لمجتمع الخلافة الشرقية (آغاليك مجاهر، قايدة فليته، آغاليك الشرق أمودجا)، رسالة دكتوراه، إشراف فغور دحو، جامعة وهران، قسم التاريخ وعلم الآثار، السنة الجامعية 2010-2011م، 45.

ينظر:

- Pouyanne(m), la propriété foncière en Algérie, op.cit, p103.

الشراء، وهو بطريقة غير مباشرة يقضي كل غريب من هذه العملية ويتحكم بالتالي في انتقال الممتلكات بما يتوافق ومصلحة المجموعة العائلية، وحق الشفاعة هنا يمثل مظهر من مظاهر التضامن العائلي¹.

وغالبا ما كانت القبائل ترضخ للمطالب المخزنية طوعية حماية الأرضيها، وهناك دلائل كثيرة على ذلك، منها ما أورده حمدان خوجة قائلا: " نظرا للأهمية التي يولونها للزراعة ولما يريدونه من حماية لغلالهم وضمان لأملاكهم ؛ فإنهم يدفعون طوعية ضريبة لرئيس الأيالة"².

ونستنتج مما سبق أن الأرض كانت تعتبر شركة على مستوى العائلة الموسعة والقبيلة، لا يجوز توزيعها أو تجزئتها إلا في الحالات الطارئة، لهذا يحيطها المجتمع القبلي بكل القيود العرفية كي لا تخرج ملكيتها عن المحيط العائلي والقبلي بشكل عام، وتؤكد الباحثة الفرنسية جيرمان تيون في كتابها المعنون ب: Le Harem et les Cousins بأن ملكية الأرض تقع ضمن الثالوث المحرم الذي يقوم عليه التلاحم القبلي وهو ثالوث غير قابل للتجزئة أو التفكك أو التنازل، والثالوث في نظرها هو الأرض والدم والشرف³.

وفي المناطق التي يسودها الملك العائلي غالبا ما تواجه القبيلة قبيلة أخرى، باستعمال السلاح، فحسب حمدان خوجة، السلاح مهم بالنسبة للقبائل بقوله: "يرى هؤلاء السكان الرحل أن من الضرورة الملحة أن يكتسب المرء حصانا وبندقية وسيفا، والذي لا يملك هذه الأشياء يكون محتقرا ومنبوذا، لأنه كما يقولون، لا يقدم ضمنا سواء للقيام بواجباته أو الدفاع عن المجموعة"⁴.

5- موقف السلطة العثمانية من التحالفات القبلية:

استعملت الإدارة العثمانية في الجزائر سياسة فرق تسد، لضرب أية مصلحة بين القبائل، خاصة منها المتمردة والتي تشكل خطرا كبيرا على التواجد العثماني بالجزائر بما تمثله من قوة بشرية ومادية ليس في إمكان الأقلية العثمانية المبعثرة في أنحاء البلاد رده، كما استغل الأتراك القبائل لخدمة مصالحهم والحفاظ على وجودهم⁵. وظهر هذا الأسلوب في إثارة الأحقاد والضغائن بين السكان، وتعميق الهوة بين صفوفهم بدفع طرف ضد الآخر⁶، وعبر أحمد باي أحد رموز النظام العثماني في الشرق عن ذلك بقوله:

¹ - كمال بن صحراوي، اوضاع الريف...، مرجع سابق، ص134.

² - حمدان خوجة، مصدر سابق، ص102.

³ - سلطنة عابد، مرجع سابق، ص67.

⁴ - صالح عباد، مرجع سابق، ص383.

⁵ - حنيفي هلايلي، ثورة الدرقاوية في الغرب الجزائري خلال عهد الدايات، مرجع سابق، ص125.

⁶ - Rinn (L), Le Royaume D' Alger sous le dernier dey, op.cit, p125-126.

"...إن الحرب من عادة العرب، و إن الذي يريد أن يحكم ويسيطر عليهم، يتوجب عليه إبقاءها بينهم، وإثارة المشاحنات والمنافسات بين القبائل المختلفة الأصول والأجناس..."¹.

فبفضل القوات المخزن تمكن النظام العثماني من حماية نفسه من القبائل الجبلية والصحراوية، بل وبفضلها تمكن من الاستيلاء على أراض خصبة واسعة، ونتج عن هذه السياسة العثمانية القائمة على مبدأ حماية النظام بقبيلة ضد قبيلة بقاء قبائل كثيرة معزولة في مناطق جبلية و صحراوية؛ وغير مقبلة بشكل واسع على فلاحية الأرض وهو الأمر الذي كان له انعكاس سلبي على "المقاومة" الوطنية الجزائرية، وانعكاس إيجابي على التوسع الفرنسي بالمنطقة.²

فكثير ما تسببت السلطة الحاكمة في إثارة بذور الفرقة بين الجماعات القبلية، فقد حدث أن أجبرت السلطة قبيلة ريغة في عهد الداوي عمر (1815-1817م)، التي كانت على خلاف معها في سنة 1817م³، على التحول إلى ببايلك الغرب وأسكنتها جهة أرزيو ليسمح لها مجدد بالعودة إلى موطنها، غير أنها فوجئت بأن النظام باع بعض أرضها لبني مناد، وبني مناصر، وحول بعضها إلى ممتلكات الببايليك وغازل قبائل الزمول ببعضها الآخر.⁴

فبعد خمسة عشر من النزوح عادت قبيلة ريغة إلى أرضها، فاصطدمت بالأمر الواقع، ودخلت في صراع مع قبائل بني مناد وبني مناصر، وتم للجوء إلى المحاكم وقدمت قبيلة ريغة دلائل بأنهم اشتروا الأرض من الأتراك، وانتهى الأمر بالتصالح.⁵

و من الأسباب التي تثير الشحناء والنزاعات بين القبائل بعض التصرفات الموجهة للسلطة التركية فهي تجامل قبائل على حساب قبائل أخرى فتصادر أملاك قبيلة وتعطيها لقبيلة أخرى حسب ما تقتضيه المصلحة،

¹ - Marcel, Emerit, Mémoires d'Ahmed Bey de Constantine, in, R.A, n° 93, 1949, p88.

² - عميراوي حميدة، نفس المرجع.

³ - كانت قبائل ريغة تستقر بضواحي مليانة، وفي حالة حرب ضد الإدارة العثمانية بسبب رفضها دفع الضرائب، وكانت قبائل ريغة تتردد على سوق مليانة الأسبوعية، بعد أن حصلت على الامان من الإدارة، وفي يوم من أيام السوق، اعترض كراغلة مليانة سبيلها، فشنوا هجوما على قرى أهل ريغة، واحرقوا منازلهم وخيامهم، ثم منحت حق الامان وتم إنزال سكانها الى عين السلطان، فطلب منهم زرع الارض، وأن يصبحوا جزءا من المخزن، إلا أن الإدارة لم تلتزم بوعودها، إذ بعد يومين قررت طردهم من عين السلطان ونقلهم الى ببايلك الغرب. ينظر:

- M.JULIENNE LES RIR'A DE LA SUBDIVISION DE MILIANA, R.A, N°10, 1856, PP284-285.

⁴ - Despois (Jean), «La répartition de la population en Algérie», Annales.Économies, Sociétés, Civilisations. 15e année, No 5, 1960. p 925.

⁵ - M.JULIENNE LES RIR'A DE LA SUBDIVISION DE MILIANA, op.cit, 285.

والنماذج التاريخية كثيرة توضح لنا ذلك، فقد صادر الأتراك في الثلث الأول من القرن السادس عشر، أراضي قبيلة **لأمحال** بالسهول الخصبة الممتدة من البحر إلى سفوح الأطلس التلي، ومن وادي صالادو إلى نهري الشلف ومينا، بما في ذلك أراضي مدينتي أرزيو و مستغانم، وسمحت السلطة باستقرار مجموعات مخزنية في هذه الأراضي المصادرة¹.

كما أقدمت في نهاية القرن الثامن عشر على مصادرة عشائر بني عامر وفليته _ بسبب مساندتهم للاسبان- وبذلك استطاع الباي مصطفى بوشلاغم توطين الزمول والدوائر في السهول القريبة من وهران، وبادر الباي محمد الكبير بإقرار هذه المجموعات بالجهات المحيطة بوهران عقب تحرير وهران 1792م². ولقد ظهر مع هذا التحول أوضاع اجتماعية جديدة، كان من أبرزها شيوع فكرة الأحلاف العشائرية، والتي عرفت **بفكرة الصف**، واعتبرت وسيلة فعالة لحماية القبيلة من أي اعتداء قد تتعرض له من القبائل المجاورة، خاصة وأن السلطات الحاكمة لم تكن لها مصلحة في حماية هذه القبائل وحفظ النظام، بل على العكس من ذلك، اتخذت الصراع العشائري والتنازع القبلي ذريعة للتدخل في الشؤون الخاصة لهذه القبائل، ومطية لبسط نفوذها على المناطق الخاضعة لهذه القبائل³.

وصفوة القول، بعد دراستنا لهذا الموضوع، ومن خلال مراحل تبين جليا أن السلطة العثمانية لعبت دورا مميزا في إثارة بذور الفرقة والتناحر بين القبائل وغدت روح الصراعات بين الأفراد، فهي من يستولي على أجود الأراضي وتعطيها لمن يخدم مصالحها، وتطرد من تشاء من القبائل، وهي من ساهم في تبلور الفكر الاقطاعي بخلق عائلات أرسقراطية تستحوذ على النفوذ الروحي والمادي.

قائمة المراجع:

- سعيدوني، ن. ا. (1979). النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية 1800-1830م. (1 ط، م 1). الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- Den-Joseph , A. (1978). *Oran et L ouest Algérien au 18 Siècle*. Alger: Présentation et traduction de korso et Epalza.
- الواليش، ف. (1993). *الحياة الحضريّة في بيابلك الغرب الجزائري خلال القرن الثامن عشر* (أطروحة ماجستير). جامعة الجزائر، الجزائر.
- دهماني، ت. (2007). *الضرائب في الجزائر 1206-1282هـ/1792-1865م*، دراسة مقارنة (أطروحة دكتوراة). جامعة الجزائر، الجزائر.

¹ - ناصر الدين سعيدوني، وراقات جزائرية، مرجع سابق، ص 271.

² - المرجع نفسه.

³ - -أحمد مجري، ضرائب الجزائر العثمانية، ص 17.

- عبد، ص. (2005). الجزائر خلال الحكم التركي 1514-1830. الجزائر: دار هومة للطباعة والنشر.
- دغموش، ك. (2013). قبائل الغرب الجزائري بين الاحتلال الإسباني والسلطة العثمانية (1509-1792م) (أطروحة ماجستير). جامعة وهران، وهران.
- غطاس، ع. (2007). -، النظم الإدارية المركزية ببايليك الغرب. في الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسستها. الجزائر: منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954.
- Esterharzy, W., & Joseph, L. (1840). *De la Domination turque dans l'ancienne régence d'Alger*. , Paris: , Librairie de Charles Gosselin.
- خوجة، ح. ب. ع.، & الزيري، م. ا. (2005). ، المرأة، محمد العربي الزيري ، منشورات المؤسسة الوطنية للاتصال ، الجزائر: منشورات المؤسسة الوطنية للاتصال.
- كمال فيلاي، ك. (2014). البايلك نظام حكم في الجزائر العثمانية، مجلة الهجرة والرحلة. مجلة الهجرة والرحلة، 22-44.
- دحماني، ت. (2007). الضرائب في الجزائر 1206-1282/1792-1865م، دراسة مقارنة، (أطروحة دكتوراة). جامعة الجزائر، قسم التاريخ، الجزائر.
- ارزقي شوتيام، ا. (2005). - ارزقي شوتيام ، المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني 1519-1830م، (أطروحة دكتوراة). جامعة الجزائر، الجزائر.
- دحماني، ت. (2003). النظام الضريبي ببايلك الغرب الجزائري أواخر العهد العثماني (أطروحة ماجستير). جامعة الجزائر، الجزائر.
- لوسيت، ف.، & الياس مرقص، ا. (1980). فالنسي، المغرب العربي قبل سقوط مدينة الجزائر 1790-1830م، تر، الياس مرقص، بيروت: دار الحقيقة للطباعة والنشر.
- حباش، ف. (2013). حباش فاطمة، المكاتب العربية ودورها في المد الاستعماري بالغرب الجزائري (1844-1870)، تيارت، سعيادة، جيزفيل، البيض. نماذج، (أطروحة دكتوراة). جامعة احمد بن بله2، وهران.
- Despois, J. (1960). - Despois (Jean), «La répartition de la population en Algérie», , 1960. p 925. *Annales.Économies, Sociétés, Civilisations.*, (05), 925-966.
- المشرقي الجزائري، ع. ا.، & بن عبد الكريم، م. (1974). بحجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الاسبانيين بوهران من الاعراب كبنى عامر. *****.
- بحري، أ. (2012). - حاضرة مازونة دراسة تاريخية وحضارية، (أطروحة دكتوراة). جامعة احمد بن بله2، وهران.
- سلطانة، ع. (2010). ، التراتبية الاجتماعية ببايلك الغرب وأثرها على مقاومة الامير عبد القادر 1832-1847م ، مقارنة مونوغرافية لمجتمع الخلافة الشرقية) آغاليلك مجاهر، قيادة فليته، آغاليلك الشرق أنموذجا، (أطروحة دكتوراة). جامعة وهران، وهران.
- Aramburu Joseph De, D., & Joseph, D. (1978). *Oran et L ouest Algérien au18 Siècle*. Alger,B. N.: ,Présentation et traduction de korsos et Epalza.
- L. Féraud, L. (1873). , lettre arabes de l'époque de l'occupation Espagnole en Algérie. in *R.A 1873,N°17,P.318*, 318-341.
- بن هطال التلمساني، أ.، & بن عبد الكريم، م. (1969). رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري الى الجنوب الصحراوي الجزائري، القاهرة: القاهرة، عالم الكتب، ط 1، .

Emerit, (1966). les tribus privilégiées en Algérie dans la première moitié du xix siècle. *Annales économies, sociétés, Civilisations*, 44-55.

- شارف، و. (2014). الواقع الاقتصادي للجزائر من خلال نماذج لمؤرخين جزائريين نهاية القرن 12هـ/18م وبداية القرن 13هـ/19م. *مجلة العلوم الانسانية*، (41)، 58-77.
- عدي ، ا.، & جوزيف ، ع. (8319). الاستعمار الفرنسي في الجزائر سياسة التفكيك الاقتصادي والاجتماعي . 1960-183. بيروت: ، دار الحداثة .
- بن الصحرابي، ك. (2012). أوضاع الريف في بيابلك الغرب الجزائري أواخر العهد العثماني ، (أطروحة دكتوراة). جامعة احمد بن بلة 1 قسم التاريخ، وهران.
- المزاري، ا. ب. ع.، & بوعزيز، ي. (1990). طلوع سعد السعود في أخبار وهران و الجزائر واسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، ج 1. لبنان: دارالغرب الاسلامي.